

تجديد النحو بين المؤيدين والمنكرين

The Renewal of Grammar: Between Supporters and Opponents

أ.د. فرعون بخالد

جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، feraounbekhaled22@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/11/05 تاريخ القبول: 2025/11/13 تاريخ النشر: 2025/12/02

ملخص:

تركز الفكرة على الدعوة إلى تجديد النحو العربي وتيسيره ليتوافق مع متطلبات العصر، مشيرة إلى أن النحو كان في بداياته فطرياً ومستمداً من كلام العرب، قبل أن يتحول إلى قواعد جامدة يصعب على المتعلم التعامل معها. بدأت محاولات التجديد مع مفكرين مثل جرمانوس فرحات ورفاعة الطهطاوي، واستمرت مع المحدثين الذين سعوا إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة، لجعل النحو أداة حية للتعبير اللغوي.

ويؤكد المقال أن إصلاح درس النحو يعتمد على المعلم والمنهج والكتاب المدرسي، بحيث يُقدّم المحتوى بطريقة عملية وجذابة، ويهدف التجديد إلى إحياء التراث بروح حديثة لا هدمه، مما يمكن الطلاب من فهم القواعد واستخدامها بثقة ودقة، مع مواكبة التطورات المعاصرة في اللغة.

كلمات مفتاحية: تجديد النحو؛ تيسير اللغة؛ نحو علمي؛ نحو تعليمي.

Abstract:

The main idea focuses on the call to renew and simplify Arabic grammar to meet contemporary needs. It notes that grammar was originally intuitive, derived from the natural speech of Arabs, but later became rigid and difficult for learners to navigate. Early reform efforts by thinkers such as Germanus Farhat and Rifa'a al-Tahtawi, continued by modern scholars, aimed to balance tradition with modernity, making grammar a practical tool for expression.

The article emphasizes that effective grammar teaching relies on the teacher, the curriculum, and the textbook, presented in a clear and engaging manner. Renewal seeks to revive linguistic heritage with a modern approach rather than dismantle it, enabling students to understand and apply grammatical rules confidently and accurately while keeping pace with contemporary language developments.

Keywords: Grammar renewal; Language simplification; Scientific grammar; Educational grammar.

1. مقدمة:

الدعوة إلى تيسير النحو العربي وجه من وجوه متطلبات الثقافة العربية التي يسعى اللغويون المحدثون إلى تطويرها ليصبح أكثر قدرة على الاستجابة للحاجات الفكرية والعلمية الراهنة، وقد طرأ على الكلام العربي تطور من زمان إلى زمان وهي حميات نظرا على اللسان البشري يحكم الاختلاط والتعامل، فلا يمس جوهر اللغة الأم وإنما ينميها ويطورها ويضيف إليها، فالنحو كلام يسمع وليس قياسا يتبع والغاية من ذلك هي الفهم والتفهم. وهذا ما أدركه اللغويون الأوائل كالخليل، سيبويه، ابن جني، عبد القاهر الجرجاني والجاحظ الذي يقول: " وكلام كثير قد جرى على السنة الناس، وله مضرة شديدة وثمرة مرة فمن أضرب ذلك قولهم لم يدع الأول للأخر شيئا، فلو أن علماء كل عصر تركوا الاستنباط لما لم ينته إليه فمن قبلهم، لرأيت العلم مختلا، وأعلم أن العلم معدن، فكما أنه لا يمنعك أن ترى ألوف وفر قد أخرجت من معدن تير أن تتطلب فيه، وتأخذ ما تجد ولو كقدر ترمه، كذلك ينبغي أن يكون رأيك في العلم ". ولكن المقلدين يتباهون يحفظ المتن النحوية ولا يكلفون أنفسهم عنت البحث والاجتهاد، ناسين أن النحو هو انتقاء سمت كلام العرب وأنه كلامنا الذي نتكلم به، يقلد الخلق السلف في الشاهد من القول ولا يتجاوز ما عرف " وما أصح علم من تقدم " وإذا سألتهم عن العلة في ذلك قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أُولَٰؤُ حِثُّكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف : 23 - 24] ، فالانتقال من وضع إلى وضع آخر ليس من السهولة بمكان وقد ساد هذا المنهج واعتاد عليه الناس وعملوا على مقتضاه، فأصبح مألوفًا متداولًا ومن حاول التحرر من هذه القيود نعت بالخروج عن جادة الصواب إلى أن جاء نفر من المحدثين الذين أطلعوا على ما كتب في التراث فطعموه بالمناهج الحديثة فكانت أصالة وحداثة، لأن التزويد بالمناهج

الحديثة ضرورة ملحة والتعمق في دراسة الأصيل وبناء الذات العربية، والتلاقح اللغوي يجعل العربية تسائر ركب التقدم اللغوي اللساني التي تشهده اللغات.

2. الدعوات الأولى إلى تجديد النحو:

منذ أن أصدر رفاة الطهطاوي عام 1868 كتابه "التحفة المكنية لتقريب اللغة العربية"، تعالت الدعوات إلى تجديد الدرس النحوي العربي. وقد أجمع عدد من الباحثين، مثل محمود فهمي الحجازي وشوقي ضيف والسعران، على أن هذا الكتاب استجاب لمتطلبات التعليم الحديثة؛ إذ قدّم نصّاً تعليميّاً متكاملًا خاليًا من الشروح المطولة والعوائق، واعتمد على الجداول الإيضاحية لعرض الموضوعات النحوية بأسلوب منظم ومبتكر.

ويبدو أن تجديد الطهطاوي في منهج النحو العربي الحديث كان نتيجةً لتأثره بالثقافة الفرنسية، التي سبقته في هذا الاتجاه بما يزيد على قرن ونصف، منذ العقد الأول من القرن الثامن عشر، حين ألّف المطران جبيرل جرمانوس الماروني الحلبي (1680) كتابه "بحث المطالب"، وهو مؤلّف يكاد يكون مجهولاً لدى معظم مؤرخي الثقافة العربية الحديثة.

والمثير للانتباه أن جهود جرمانوس لم تحظَ بالاهتمام الكافي من الباحثين العرب والمستشرقين؛ إذ لم يتجاوز جرجي زيدان الإشارة العارضة إلى هذا الكتاب دون تناولٍ مفصّلٍ لمحتواه أو قيمته العلمية.

في حين أسند مارون عبود حرمانوس فرحات "فصل التأليف في النحو، فهو أول مسيحي أخذ العلم عن الشيخ سليمان النحوي المسلم في حلب"¹ ورأى الريحاني أن فرحات، بصفته لغويًا، أدرك الحاجة الملحة إلى إعداد كتب في قواعد اللغة العربية تُسهّل تعلمها وإتقانها، فقام بتأليف مؤلفات في الصرف والنحو والبيان، ظلّت متداولة ومستخدمة بين المسيحيين حتى وقت قريب.

وقد توقف عدد من المستشرقين أمام كتابات جرمانوس ومنهم مرتمان Martin Hactman الذي أشار أنّ فرحات هو النموذج الأكثر سطوعاً بين المؤلفين المسيحيين العرب في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر وقد أقر أن أشهر كتاباته كتابه في النحو « بحث المطالب »، ثم تبعه المستشرق الألماني جراف (Gorge Graf) في كتابه تاريخ الأدب المسيحي العربي، ويُعدّ رمانوس فرحات مؤلف أكثر كتب النحو العربي انتشاراً في مدارس المسيحيين، ويتمثل تجديده في اعتماده أمثلة نحوية مستمدة من الترجمات العربية للإنجيل، مما منح مؤلفاته طابعاً مميزاً يجمع بين الأصالة اللغوية والخصوصية الدينية، وقد وصف المستشرق الإنجليزي بول ستاركاي (Paul Starkey) هذا العالم بأنه بشير النهضة، وتبرز أهميته في ميدان تعليم اللغة العربية من خلال ما قدّمه من مؤلفات في المعاجم والنحو والبلاغة، وهي كتب حظيت بانتشار واسع وإقبال كبير من الدارسين. فالدعوة إلى تجديد النحو إذا بدأت منذ أواخر القرن السابع عشر لكنها لم تلق آذانا صاغية في المجتمع العربي إلا عند المستشرقين وبعض العرب المسيحيين.

3. تطور الدراسات اللغوية الحديثة:

ثم عرفت الدراسات اللغوية في العصر الحديث تطوراً أدى إلى ترزاع المفاهيم القديمة الموروثة عن عصور الانحطاط، فتطورت مناهج البحث وقامت حركة لغوية شبانية عربية تزودت بالتراث العربي الأصل وتشتبعت بالثقافة اللسانية المعاصرة فجمعوا بين الحسنيين ونذروا أنفسهم خدمة لهذه اللغة فتأروا على هجمات المتمردين عن الأصالة (كعبد الواحد وافي صبحي صالح، رمضان عبد التواب، كما بشر، السعرا، حسن ظاظا، عبد الصبور شاهين شوقي ضيف، عبده الراجحي السامرائي، محمد فهمي حجازي، تمام حسان ...) والذين طرحوا الإشكالات التي تجلت في قولهم ما هو النحو الواعي الأصل؟

وكيف انحرف الدرس النحوي عن أهدافه في الأساسية؟ وما الذي يجب أن يتوفر في هذا الدرس النحوي؟

سار النحاة الأوائل على هدى العفوية يستقرون الأشعار والعرب من كل الفئات وقد نجد مؤلفا مثل «الكتاب» لسيبويه مملوءا بالأقوال المأثورة عن العرب.

4. مرجعية النحاة الأوائل:

نجح اللغويون الأوائل وأصابوا غايتهم في مرجعيتهم التي تعتمد الإنسان الحي الناطق، واعتمد النحاة الأعراب مصدرا وموردا عنهم يأخذون وعلى لهجهم يسرون وكانوا يتحدثون مجالس يتناظرون فيها، والأعراب أنفسهم يصوبون ويخطئون بعفوية متناهية، وطبع سليم قال ابن جني "هبة لا يعرف التصرف - أي العربي - أتراه لا يحسن بطبيعة وقوة نفسه ولطف حسه هذا القدر هذا ما لا يجب أن يعتقد عارف بهم أو ألف مذاهبهم، لأنه وإن لم يعرف حقيقة تعريفه تصريفه بالصنعة فإنه يجده بالقوة"²، وكلما ازداد الراوي تمسكا بروح البداوة وصفاء لسانها، كان قوله أصح ومذهبه أقوم، لأن لغتهم تصدر عن الطبع لا عن التكلف والصنعة. لذلك كان العلماء يعتمدون على الواقع اللغوي الحي المتداول في حياة الناس اليومية.

جاء في مجلس من جاء عيسى بن عمر إلى أبي مجالس العلماء للزجاجي أنه "عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو ما شيء بلغني أنك نخيزة؟ قال وما هو قال بلغني أنك نخيزة ليس الطيب إلا المسك بالرفع فقال له أبو عمرو، نمت يا أبا عمرو وأدلى الناس، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ولا في الأرض تميم إلا وهو يرفع"³ فحواب أبي عمرو فيه استقراء للجغرافيا اللغوية التي يتنازعها التميميون والحجازيون، فهو لم يقل هذا الرأي صائب وما سواه لحن وهذه هي الأحكام الموضوعية العلمية لا شطط فيها ولا تغصب

لقربهم من العطرة الطبيعة فهم يستهدفون الأغراض المستوحاة من النصوص. وفي قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الرَّاْسُخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا نَزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِمِّيْنَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ مَسْنُوتُهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : 162]

لم يكلف سيبويه سوى أن أتى ينظم هذا الأسلوب من كلام العرب فقال ونظير هذا لحب (المقيمين) من الشعر قول الفرزدق:

لَا يُبْعِدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سَمَّ الْعَدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ
النازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرِك وَالطَّيْبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزْرِ⁴

فرفع الظنين كرفع الموتون وينصب النازلين كنصب الصابرين.

لم يلجأ سيبويه إلى التقدير أو الحذف أو الافتراض، بل صحح هذا الأسلوب بالاستشهاد بكلام العرب مثل: «النازلين»، و«الطاعنين»، و«القائلون»، ليؤكد أن هذا النوع من التعبير عربي خالص، مستعمل في كلام العرب شعراً ونثراً. فالعرب -عندما يتجاوزون مقام التعليم أو التحفيز- يرفعون أو ينصبون الاسم وفق تقديرين مختلفين: أحدهما على الابتداء، والآخر على المفعولية، تبعاً لما يقتضيه سياق الكلام من تعظيم أو شتم، وعلى أساس هذه العفوية والفطرية الإنسانية تنشأ علم النحو وعلى مقتضاه كان الدرس النحوي، فهو علم مستمد من شعراء هذه اللغة، لأن مسلك الحس يجتمع فيه طبع البشر جميعاً، ويحتكم إليه الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، أسودهم وأحمرهم⁵ وليس الدرس النحوي إلا ابتغاء البيان والتبين والتبني والفهم والتفهيم والتفهم كائناً ما كان المخاطب وما نزل القرآن إلا بلغة العباد " ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم وجاء القرآن على بلغتهم وعلى ما يعنون⁶ . عبد القاهر الجرجاني على هذه اللغة من " أترى أن الأعرابي حين يسمع المؤذن يقول "أشهد أن محمداً رسول الله، بالنصب وأنكر وقال ضع ماذا؟ أنكر عن غير علم أن النصب يخرج

عن أن يكون خيرا ويجعله والأول في حكم اسم واحد وأنه إذ صار الأول في حكم اسم واحد احتيج إلى اسم آخر وفعل حتى يكون كلاما وحتى يكون ذكر ما له فائدة ؟ إن كان لم يعلم ذلك لم قال ضع ماذا ؟ فقلب ما يجعله خبرا⁷.

اتخذ العلماء الشعر، وهو ديوان العرب، وسيلةً لتفسير ما غمض عليهم من معاني اللغة، ولم يقتصروا في استشاداتهم على شعر الحكمة، بل تجاوزوه إلى شعر المجون إذا اقتضت الحاجة ذلك. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن العلماء استشهدوا في تفسير القرآن وإعرابه بأبياتٍ تضم ألفاظًا فاحشة أو أفعالًا قبيحة، ومع ذلك لم يُعِبه ذلك، لأن مقصودهم كان الاستدلال اللغوي لا المعنى الأخلاقي، فهم لم يوردوا الشعر لغرض الفحش ذاته، بل لما فيه من شواهد لغوية. وقالوا أيضًا إن الحسن البصري كان يتمثل في موعظته بأبياتٍ من الشعر، لما رأى فيها من بلاغةٍ وتأثيرٍ في النفوس. لكن إذا أدي الأمر إلى الحراف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك أو بفلان حكم من الأحكام نزعوا من ذلك بقول ابن قتيبة: "لو أن قارنا قرأ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ سورة يس، الآية 76 وترك طريق الابتداء وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب إن بالقول كما ينصبها بالظن، لقلب المعنى عن جهته وأزاله عن طريقه وجعل النبي صلى الله عليه وسلم محزونًا لقولهم إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وهذا أكفر ممن تعمده وضرب من اللحن لا يجوز به الصلاة ولا تجوز للمأمرين أن يتجاوزوا منه⁸.

5. علم اللسان ملكة ثم صناعة:

يقول ابن خلدون "فمن هذا تعلم أن تلك الملكة من غير صناعة العربية وإنها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب وهذه الملكة وهو قليل وأكثر ما يقع للدارسين لكتاب سيبويه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظة في

أماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن هذه الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة، ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن النطق لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخالطون لكتب المتأخرين الجارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، وقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها، فنجدهم يحسون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهو أبعد الناس عنه⁹.

هذه هي الإشكالية الكبرى التي سادت في العصور اللاحقة حيث أصبح الدرس النحوي عبارة عن قوالب جامدة لا حدودية لها واكتفى الناس بالإعراب الأجوف الذي لا يتجاوز اختلاف الحركات والسكنات. وأما إعراضهم عن علم النحو وازدراؤهم لأهله وتقليلهم من قيمته وإهمالهم له، فإن تصرفهم هذا أقبح مما مضى، وأقرب إلى الإعراض عن كتاب الله وعن تدبر معانيه. فهم مضطرون إلى الاعتراف بالحاجة إليه، إذ قد تبين أن الألفاظ لا تنكشف معانيها إلا بوساطة الإعراب، وأن المقاصد لا تُستخرج إلا به. فالنحو هو الميزان الذي يُقاس به كمال الكلام ونقصه، والمعيار الذي يُفرَّق به بين الفصيح والمعيب، ولا يجد ذلك إلا من فقد إحساسه السليم وعقله الرشيد.¹⁰

ويكون الدرس النحوي قد انتقل من العفوية إلى التعليل العقلي بعد أن بدأت ملامح التأثير والتأثير تلوح في الأفق الثقافي والحضاري، فقالوا بيد إن العلماء فرقوا بين المبحث العلمي اللساني والبحث الفلسفي المنطقي: "إن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مر المنطقي بالنحو فبالعرض وإن عثر النحوي على المعنى فبالغرض والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضح من المعنى"¹¹، فالبنية النحوية لا تنفصم عن وظيفتها الإخبارية التبليغية التي تحصل بها الفائدة التي يحسن السكوت عنهما، وقد نظر لهذه النظرية عبد القاهر الجرجاني في كتابة دلائل الإعجاز والزمخشري في تفسيره الكشاف وفصلا القول

في ربط اللفظ بالمعنى سطع نجم عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم التي ربطها ربطاً محكماً بعلم النحو وما هي إلا توحى معان النحو، يمعين ما يترتب على التأليف من معاني، ولا دخل لهم الكلم بعضها البعض كيفما اتفق بل هي تأليف الكلام حسب ما يقتضيه المقام.. ولقد نقدته علماء البلاغة وأساءوا فهمها وأعرض عنها النحاة، ومن خلال البيت كشف كيف وظف الجرجاني النحو في دراسة النصوص اللغوية.

كَأَنَّ مَثَارُ النَّعْجِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلًا تَهَاوَتْ كَوَاكِبُهُ¹²

هل يمكن أن نتصور أن بشاراً حين قال هذا البيت، قد خطرت له هذه الألفاظ مفردةً مجردةً من المعاني النحوية التي نراها فيها الآن؟ هل يمكن أن تكون (كأن) قد وردت في ذهنه دون أن يقصد بها التشبيه؟ وأن يكون قد فكر في (مثار النعج) دون أن ينوي إضافة الأول إلى الثاني؟ وفي (فوق رؤوسنا) دون أن يقصد إضافة (فوق) إلى (الرؤوس)؟ وفي (الأسياف) من غير أن يريد عطفها بالواو على (مثار)؟ وفي تلك الواو نفسها دون أن يقصد بها العطف؟ ثم أن يكون قد فكر في (الليل) دون أن يجعله خبراً لـ(كأن)، وفي (تهاوي كواكبه) دون أن يجعل (تهاوي) فعلاً للكواكب، ثم يجعل الجملة صفةً لـ(الليل) ليكمل بها صورة التشبيه التي أرادها؟ أي يمكن أن تكون هذه المعاني والأحكام النحوية لم تخطر بباله إلا وهو يريد على هذا النحو الذي نراه في كلامه؟¹³

هذا الموقف المؤيد للدرس الذي يتعلق في تحليل العلاقات بين الكلم بعضها بعض، وينتج عنها نسيج محكم وسبق من التراكيب المنتظمة أحسن تنظيم وينصب عمله على النصوص نفسها.

هذا هو المطلوب في الدرس النحوي وكان لعبد القاهر موقف في هذا المضمار والخاصة في ميدان الشعر الذي هو ديوان العرب والقرآن الكريم المنزل بلسان عربي مبين

وقد عجز الناس على أن يأتوا بسورة من مثله، وكثيرا ما عرض هؤلاء الذين يقللون من دور الشعر والنحو ويستغنون عنه ويزهدون فيه، فالنظم في حقيقته لا يكون إلا بوضع الألفاظ في المواضع التي يقتضيها علم النحو، مع الالتزام بقوانينه وأصوله، ومعرفة مناهجه التي سلكها العلماء، دون الانحراف عنها أو مخالفتها.

نشأ اتجاهان أحدهما ينتهج منهج الأصالة العربية التي تمت وفق قانون النشوء والارتقاء وهذه الأصالة رسمت معالمها المدرسة الطبيعية، والثاني يعتمد المنطق الإغريقي مرجعية له، واعتمد الاتجاهان في الجدل والنقاش إلى أن انتهى الأمر إلى التحجر والحمود وموت الدرس النحوي الواعي، وتوقف الاجتهاد وبدأ التقليد يسود وقالوا "من قلد عالما لقي الله سالما" وليس أبدع مما كان وما ترك الأول للآخر شيئا، تحفت العفوية وتحكمت القواعد والقوانين واختلطت مع الأحكام الفقهية ومصطلحات عالم الحديث فالقياس النحوي عند الأوائل هو "أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، تحول إلى أركان وأنواع (أصل فرع، علة حكم) "لأن النحو كله قياس ولهذا قيل في حده: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو، ولا يعلم أحد من العلماء أنكره، لثبوته بالدلالة القاطعة"¹⁴ وهذه الشروط هي من اختصاص المناطق وأما أنواعه وأقسامه فقياس علة وقياس شبه وقياس اطراد ولكل واحد من هذه الأقسام حدود وشروط "لأنه يشترط في ناقل اللغة أن يكون عدلاً، سواء أكان رجلاً أم امرأة، حرّاً أم عبداً، تماماً كما يشترط ذلك في راوي الحديث. أما إذا كان ناقل اللغة فاسقاً، فلا يُقبل نقله ولا يُعتدّ به، فأين تلك العفوية السمحة التي تستفاد من الفاسق والطائع والفاجر والبار والعاقل والمجنون والصبي والعجوز لأن النحو عند ابن جني هو اتباع نهج العرب في أساليب كلامهم وتصريفاته من إعرابٍ وتثنيةٍ وجمعٍ وتصغيرٍ وتكسيرٍ وإضافةٍ ونسبٍ وتركيبٍ وغيرها، حتى يتمكن من ليس من أهل العربية من اللحاق بهم في فصاحتهم، فينطق بها

على طريقتهم وإن لم يكن منهم، فإذا انحرف بعضهم عنها أعادوه بها إلى صواب اللسان العربي.

فاختفت اللطائف النحوية والنوادر البلاغية التي تحتني من التراكيب النحوية وحل محلها حدود وقواعد ترهق الذهن وتنهك الجهد وتقوقع حافظها فلا يكلف نفسه المتابعة بالاستقراء فتعكف على تلاوتها ما قبل مخالف لها ليس من كلام العرب لأنه غير موجود في القواعد التي علمها، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا المعنى بوضوح في كلامه وذكر أن اللغة في هذا العصر لو تتبعنا خصائصها وأحكامها، لوجدناها قد ابتعدت عن الحركات الإعرابية التي تبدلت دلالاتها وتغيرت وظائفها بفعل عوامل متعددة، فأصبحت للغة قوانين جديدة خاصة بها، قد تختلف في نهاياتها وأسسها عن النهج الأول للغة مضر، فاللغات وملكاتنا لا تُمنح مجاناً، بل تتطور تبعاً لاستعمال أهلها وتحول أحوالهم.

ويمكن القول إن هذا النص يعكس إحساساً بالتطور الذي أصاب اللسان العربي، وبالتحول الذي طرأ عليه، حتى أصبح يبحث في واقعه اللغوي عن وسائل جديدة يمكن أن تقوم مقام الحركات الإعرابية التي ضعفت وظيفتها الأصلية. فالنحوي الحق لا يجوز له أن يعزل نفسه عن ميادين الحياة المختلفة؛ في البيت، أو الشارع، أو المجلس، أو السوق، بل عليه أن يصغي إلى ما ينطقه الناس في كل موضع. غير أن ما حدث هو العكس تماماً، إذ انحصر الدرس النحوي في مؤلفات المتأخرين، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في قوله عن هذا التراجع.

أما الذين اقتصروا على دراسة كتب المتأخرين، المنقطعين عن أمثال العرب وكلامهم الأصيل، فإنهم قلما يدركون حقيقة الملكة اللغوية العربية أو ينتبهون لأهميتها، فنراهم يظنون أنهم قد بلغوا مرتبة الإتقان في لسان العرب، وهم في الواقع أبعد الناس عنه.

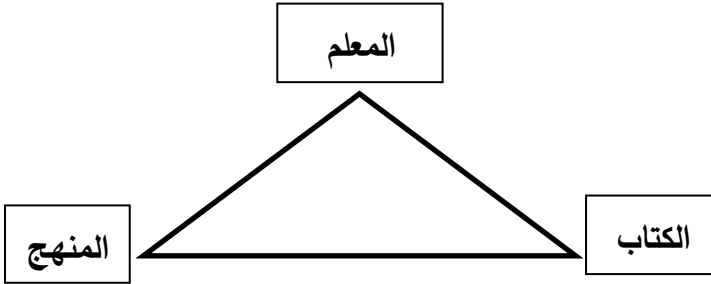
وقد تكفلت بالمحافظة على هذا النهج ثلاث منارات علمية الأزهر، الزيتونة، الفردوس، وانطلق منها درس النحوي مقتصرًا على ألفية ابن مالك ومؤلفات ابن هشام وبخاصة «قطر الندى» و«معنى اللبيب عن كتب الأعراب»، وتوسع هذا الاتجاه معتمداً على الشروح والتعليق وكون منهاجاً له مقوماته منها العامل والمعمول الإعراب الظاهر والمقدر والذكر والحذف جوازا ووجوباً، وضاع الطلاب في متاهات التقديرات والافتراضات وأصبحت دراسة النحو كأنه علم أجنبي بعيد عن فعل الخطاب والحديث المتداول. إن انتشار هذا المذهب وتحكمه في درس النحوي لا يعني أن النحويين قد تحجرت أفكارهم وعقمت عقولهم عن الإنكار واكتفوا بالتقليد والإتباع، فمنهم من استتار عقله وأدرك ما في هذا الاتجاه من خلل وانحراف عن طريق الصواب. فالوضع غير السوي الذي آل إليه اللسان العربي، وما أصابه من ضعف شبه كامل - كما وصفه علماء النحو في مؤلفاتهم - دفع العديد من العلماء، بعد زوال الدولة، إلى محاولة حفظ ما تبقى من العربية، فجمعوا شتاتها في مؤلفات ضخمة، كما فعل ابن منظور في معجمه الشهير "لسان العرب".¹⁵

وما ذكر النحو إلا ارتبطت في أذهاننا تلك القواعد التي سنّها المتأخرون حتى إذا ما سئل أي دارس للنحو ما النحو؟ لأجاب ببداهة بأنه قواعد يعرف بها أواخر الكلم بحسب العوامل الداخلة عليها، فلفظة قاعدة غير واردة في كتب العلماء الأوائل، إلا بعد أن اتصلوا بالمصطلحات الأجنبية فهناك الخصائص لابن جني، دلائل الإعجاز لعبد القاهر وغيرها من الكتب التي تناول النحو على أنه مرادف للعربية بكل أبعادها الصوتية، الإفرادية، التركيبية والبلاغية.

والطريقة التي تُكسب الطالب القدرة على التصرف في أساليب العرب ومجاري كلامهم، وتنمي لديه ملكة الإنشاء والتأليف، هي تلك التي تعتمد على كتاب سيبويه ومن سار على نهجه، لما يتضمنه من شواهد شعرية وأمثلة من كلام العرب. أما الطريقة الأخرى،

التي تستند إلى كتب التراث دون تذوق حي للغة، فيظن أصحابها أنهم بلغوا مرتبة المتقدمين، لكنها في الحقيقة تُضعف الملكة اللغوية وتطمسها في اللسان العربي، وهم أبعد الناس عنها. وهذه هي -للأسف- الطريقة السائدة في مدارسنا اليوم، حيث نجد نمطين من تعليم النحو، وهو جوهر اللغة العربية. أحد هذين النمطين مبتدع ومقتبس، لا يراعي أصالة اللسان العربي ولا خصائصه الصوتية والإرادية والتركيبية والبيانية، بل يحاول تقليد الأساليب المتبعة في المدارس الأجنبية، متجاهلاً أن لكل لغة نظامها الخاص ومميزاتها التي تميزها عن سواها. وإزاء هذه الإشكالية زاغ المعلم والمتعلم وضاعت الفائدة ومن هنا نرى أن قوام العملية ثلاثة عناصر.

6. قوام العملية التعليمية:



1.6 المعلم:

هو العنصر الأساسي والمرشد الهادي والموجه لذا ينبغي أن يتوفر على تكوين حكم من الناحيتين ومعر المعرفة الواسعة المحيطة بعلوم اللسان العربي إحاطة تجعله مالكا لزام علوم العربية متكن بالتصرف والاجتهاد والمادة الأصلية، والمعلم في مهنة التدريس يستطيع الابتكار والتجديد فينطلق من ذاته وشخصيته ومعلوماته وحالة العلمية والذي بيع الطالب في التجديد لأن المعلم الجيد هو المعلم المبدع والبدع ليس المقلد الذي ينتج أسلوب وطريقة

معينة خلال جميع دروسه، وهنا تدخل كفاءة المعلم ومدى خبرته في اختيار الطريقة المناسبة، فالكفاءة هي العنصر الذي يُمكن المعلم من قيادة التلميذ نحو تحقيق الهدف التعليمي، وهي التي تُحدّد طبيعة الطريقة التي ينبغي اتباعها في التعليم.

2.6 المنهج:

هذه المملكة اللسانية يجب أن يصحبها تكوين تربوي بيداغوجي يجعل المعلم يطلع على كل الطرق والمناهج القديمة والحديثة، متمكنا في علم النفس التربوي والنظريات التعليمية الخاصة، وقد ظهرت في محال التعليم طرائق كثيرة خاصة واستندت هذه الطرق إلى الدراسات النفسية للمتعلم، فالمشكلات التي يواجهها القراء التربويون هي البحث عن الطريقة الناجحة التي تصل بالمتعلم إلى الهدف المنشود فنجاح التعليم يرتبط إلى حد كبير بنجاح الطريقة السديدة التي يمكنها أن تعالج كثيرا من فساد المنهج وضعف التلميذ وصعوبة الكتاب المدرسي. ونظرا لأهمية النحو فإن المتخصصين والمهمين بطرائق التدريس وضعوا مناهج لتذليل هذه المادة وجعلها أكثر حيوية.

3.6 الكتاب:

هو أنس المعلم ورفيق التلميذ لذلك ينبغي أن يشبع طموحهما ويوثق الصلة بينهما بأبوابه المستقاة من رافع المجتمع، يراعي فيه مبدأ التدرج، فالكتاب ليس من الأمور الهينة يجب أن يتولى غالبه المعلم بعد أن اكتسب تجربة وخبرة في الميدان، فهو يقدّم لنا خلاصة خبرته الميدانية، مع مراعاة المستوى العقلي والعُمري للمتعلمين، إذ يُخصّص لكل مرحلة كتاب يناسبها. فالطفل يمتاز بقوة الذاكرة، وهو في التعبير الشفهي أقدر منه في الكتابي، لذلك ينبغي تزويده منذ الصغر بتعابير لغوية سليمة وغنية، ليخترنها رصيّدًا يستفيد منه في المراحل اللاحقة حين ينمو عقله ويتسع فكره.

7. خاتمة:

يتبين من خلال هذا العرض التاريخي والفكري أن الدعوة إلى تيسير النحو العربي وتجديد مناهجه ليست بدعة حديثة، بل هي امتداد لحركة ووعي لغوي بدأت منذ القرون الأولى، وتعمقت مع النهضة الحديثة، حين شعر اللغويون العرب بضرورة إعادة النظر في طرائق تعليم النحو ومفاهيمه بما ينسجم مع حاجات العصر الفكرية والتربوية.

لقد كان النحو العربي في بداياته علماً حياً نابضاً بالاستقراء من كلام العرب وأشعارهم، قائماً على العفوية والطبع، لكنه مع مرور الزمن تحول إلى قوالب جامدة، وتحكمت فيه المصطلحات والتقديرات العقلية والمنطقية، ففقدت اللغة روحها وسهولتها.

ثم جاءت النهضة اللغوية الحديثة لتعيد الاعتبار إلى الأصالة العربية وتستفيد من المناهج اللسانية المعاصرة، محاولةً الجمع بين عمق التراث وصرامة المنهج العلمي الحديث، بهدف جعل العربية أكثر قدرة على الاستجابة للتحديات المعرفية والتعليمية الراهنة.

ومن هنا، فإن تجديد الدرس النحوي لا يعني هدم التراث أو التفريط فيه، بل يعني إحياءه بروح جديدة، وتوظيفه لخدمة الفهم والتفهيم والتواصل، لأن النحو في جوهره ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة للفهم الصحيح والتعبير السليم.

ولذلك، فإن نجاح عملية الإصلاح النحوي يتوقف على تكامل ثلاثة عناصر أساسية:

- **المعلم الواعي** المبدع القادر على التيسير دون إخلال،
- **المنهج المتوازن** الذي يزاوج بين الأصالة والمعاصرة،
- **الكتاب المدرسي** الذي يراعي مستويات المتعلمين ويجعل النحو جزءاً من الحياة اللغوية اليومية لا دروساً نظرية معزولة.

إنّ اللغة العربية قادرة على التطور والنماء متى وجدت فينا الغيرة عليها والرغبة الصادقة في خدمتها، فهي لغة القرآن، ولسان الفكر والإبداع، ومجال خصب للتجديد المنضبط الذي يحفظ أصالتها ويواكب روح العصر.

7. الهوامس:

- ¹ مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، بيروت، نشر وتوزيع دار الثقافة، 1966، ص 35.
- ² ابن جني، الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، مصر، دار الكتب المصرية، ص205.
- ³ الزجاجي، مجالس العلماء، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1983، ص 3.
- ⁴ الفرزدق، الديوان، لبنان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص 15.
- ⁵ ينظر، ابن جني، الخصائص، ج1، ص159.
- ⁶ سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، 1988، ص 331.
- ⁷ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، بيروت، دار المعرفة، 1982، ص419.
- ⁸ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، ط3، 1981، ص7.
- ⁹ ابن خلدون المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1960، ص 1083.
- ¹⁰ ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، ص 28.
- ¹¹ أبو حيان التوحيد، الإمتاع والمؤانسة، بيروت، لبنان، دار علنية الحياة، ص114.
- ¹² بشار بن برد، الديوان، تح: محمد الطاهر بن عاشور، القاهرة مصر، مطبعة بلدة التأليف والترجمة والنشر، 1950، ص 181.
- ¹³ ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 411.
- ¹⁴ ابن الأنباري، الإغراب في جدل الاعراب ولمع الأدلة، تح: سعيد الأفغاني، سوريا، مطبعة الجامعة السورية، 1957، ص 95.
- ¹⁵ أحمد العوامري بك، بحوث وتحقيقات لغوية، مجلة اللغة العربية، (القاهرة)، الجزء الثالث، 1936، ص87.

9. قائمة المراجع:

- 1- ابن الأنباري، الإغراب في جدل الاعراب ولمع الأدلة، تح: سعيد الأفغاني، سوريا، مطبعة الجامعة السورية، 1957.
- 2- ابن جني، الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، مصر، دار الكتب المصرية.
- 3- ابن خلدون المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1960.
- 4- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، ط3، 1981.
- 5- أبو حيان التوحيد، الإمتاع والمؤانسة، بيروت، لبنان، دار علنية الحياة.

- 6- أحمد العوامري بك، بحوث وتحقيقات لغوية، مجلة اللغة العربية، (القاهرة)، ج3، 1936.
- 7- أمين ألبرت الريحاني، مدار الكلمة، دراسات نقدية القاهرة، دار الكتاب العربي، 1980.
- 8- بشار بن برد، الديوان، تح: محمد الطاهر بن عاشور، القاهرة مصر، مطبعة بلدة التأليف والترجمة والنشر، 1950.
- 9- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، دار الهلال.
- 10- الزجاجي، مجالس العلماء، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1983.
- 11- سامي سليمان أحمد، البداية المجهولة لتحديد الدرس النحوي في العصر الحديث، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- 12- سبيويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، 1988.
- 13- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق، محمود شاكر، بيروت، دار المعرفة، 1982.
- 14- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي.
- 15- الفرزدق، الديوان، لبنان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980.
- 16- مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، بيروت، نشر وتوزيع دار الثقافة، 1966.